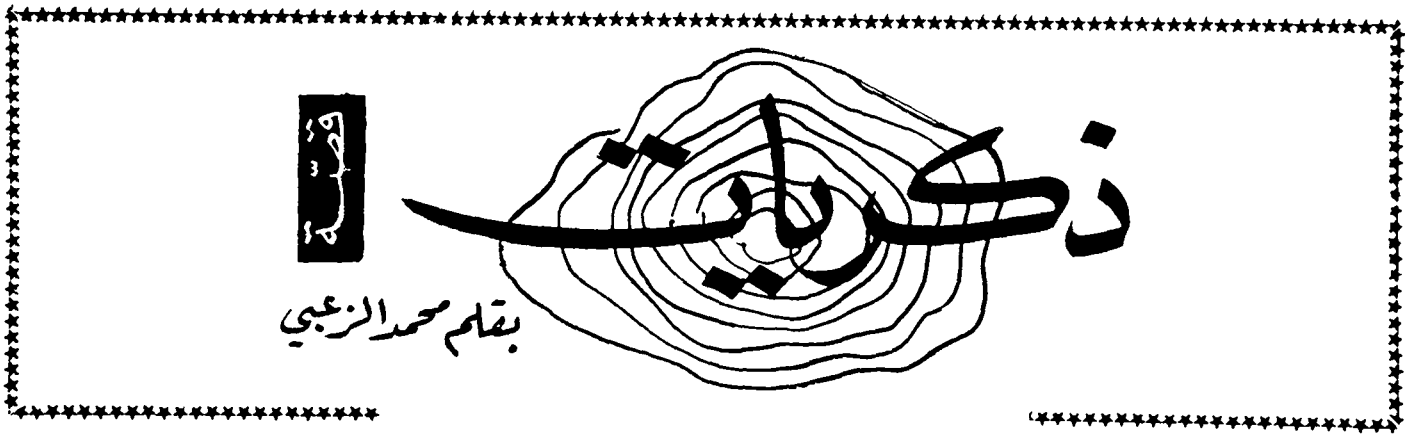

قبل قليل كنت اقوم بتصفيف شعر طفلتنا « لينا » الاسود ، واسلمها طريق المدرسة الواقعة على مسافة قريبة من بيتنا ، وذلك بعد ان وضعت لها كتب يومها في محفظتها الانيقه المختصرة وطبعت على خدها الطري قبلتي المعتادة . وحين عادت الى غرفتي تذكرت ان علي ان اخرج لزوجي « يوسف » من المكتبة ، كتاب « نقد العقل المطلق » لكانت حيث سيستعين به في اعطاء درس يتعلق بهذا الموضوع في احد صفوف المدرسة التي ما زال يشغل فيها وظيفة مدرس فلسفة منذ ثماني سنوات. وبينما كنت ابحث عن الكتاب تنابتني هزة داخلية غامضة الملامح بلغت ذروتها حين صار الكتاب بين يدي ، وسرت بخطى منلعثمة الى يوسفي احمل له الكتاب ، وكم كانت دهشتي حين رأيته بدوره يضطرب عندما وقع بصره عليه ، ونظرة سابرة ارسلها الى فوق ، واختها ركزها بين عيني ثم ربت على خدي الايمن بنحبب وخرج متسللا نفس الشارع الذي سبقه فيه لينا قبل قليل .. وكان ما يزال يسير مطرقا حين استدار به الطريق نحو اليمين وغاب عن ناظري . اما انا فقد اغلقت الباب ببطء وسحبت خطاي بتثاقل لالتصق باول مقعد اراه مستسلما لشعور اعجم غريب ، ما لبث ان بدأ يفصح عن حاله حين اخذت خيوط من الماضي تعود تاريخها الى تسع سنوات تنسلل من مكامنها بكبرياء لتلتفني برفق وتنقلني الى جنة عدنها حيب اعيتني مع « ذكرياتنا » لحظة خصب . فالحق ان الزمان يستطيع ان يسدل ستره على معظم الحوادث البشرية الفردية ويحذفها مرة واحدة الى غير رجعة كانما لم تكن اصلا، غير ان هنالك حوادث عملاقه في حياة الكائن البشري تقف كالطود في وجه الزمان تتحدى نهره ولياليه ، ودورانه على محوره بشكل مخيف :

ذات يوم ...

انني الان في الممشى الشمالي لحديقة جامعة دمشق ، والى جانبي زميلي في الصف والاختصاص يوسف ـ اي حاليا والد لينا التي قد تكون الان جالسة على مقعد الدرس ـ ، وكعادتنا بدانا نتساءل عن اخر نقطة وصلنا اليها في اليوم السابق في نقاشنا حول الزمان والوجود وبعد اخذ ورد ومماحكة بمعنى وبدون معنى اتفقنا على نقطة شرعنا نلوكها بالسنتنا وخطانا ونلف حول عنقها حبل يومنا اللذن ... كنا في السنه النهائية لفرع الفلسفة وعلم النفس وكان نجاحنا مضمونا لتفوقنا النسبي على زملائنا ، وهذا ما كان يبرر انصرافنا المتواصل لمثل ذلك الجدل البيزنطي في نظر الزملاء ، اما الذي كان يجمع بيننا ـانا ويوسف ـ فقد كان وحدة المصيبة ، مصيبة وجود بدون مبرر ، وبدون معنى،وبدون غاية،بينما الحب لم يكن يومها ليخطرلنا على بال،اذكنانعتبره بضاعة الاغبياء ، وتحريف غريزة يقف الانسان فيها على مستوى الدواب. حتى الوطنيه وممارسة النضال ضد العدو كنا نراه من واجب غيرنا فحسب .. ولم نكن نطمع من وراء هذا الدوران المستمر في دوامة الفكر ان نصل الى اية نتيجة ، اذ ليس من المعقول ان يصل من لا يزال يحبو ويزحف في عالم الجواب المظلم الى نتيجة لم يصل اليها قبله اشخاص سبق ان وقفوا على اقدامهم كافلاطون وابن رشد وكانت وسجلوا بضع خطى عنيدة جبارة ثم ما لبث ان لفهم الزمان بوشاحه وراح بهم الى حيث لا ندري .

يوم آخر ...

كعادتنا ، « خطى سدى » وافكار سود ، وبعض مقاطع من نزار قباني. غير ان امرا جديدا سوف يحدث هذا اليوم ، وسيكون نقطة تحول في حياتنا نحن الاثنين ، حيث سنستدير نحو الحياة بزاوية مقدارها (١٨٠) درجة ؟! يصل الان الى آذاننا ، زئير مظاهرة طلابية يدوي في القاعة الداخلية لكلية الحقوق فيقف يوسف فجاة ضاغطا بيده اليمنى على جبهته .. ثم ينفجر :

ـ نحن نناقش هنا امورا سخيفة ، ونزرع الدروب والممرات حكايات لا تسمن ولا تغني ، بينما يزمجرون هناك ويعيشون الحياة بدمائهم واعصابهم وخلاياهم انسجاما مع طبيعتهم ومع منطق الحياة السليمة .

فماطمه : ـ ومع ذلك قد يكونون مخطئين .

فرد بنفس الحماس السابق :

ـ حين نكون الطبيعة والحياة خطأ فنحن لسنا الا جزءا من هذا الخطأ، نحن لسنا من المريخ يا مريم ، وهذا الدماغ الذي نسفه به القيم الموجودة لم ينزل الينا من وراء المجرة ، نحن جزء من هذه الانسانية وهذه الامه وهذه الجامعة ، ومنتهى الغباء الا نكون الان بينهم نؤدي فريضة السلف علينا .

ـ انا معك يا يوسف ، ولكن هل عرفت لماذا سيتظاهرون اليوم ؟

ـ المعيب اصلا يا مريم انك لا تعرفين ، وانني اكاد اجهل ، اليوم هو هو (٢٩) تشرين ثاني .

ولما لم اكن مقتنعه تماما بفكرة الاشتراك بالمظاهرة فقد قلت له وكان قد هدأ قليلا :

ـ وهل تعتقد ان رقمين سيضيفان شيئا الى هذه الكتل البشرية المتدافقة ؟

ورأيته ينتفض :

ـ ليست القضية قضية ارقام يا آنسة ، كما ان الوطنية ليست فرض

كفاية ، انها قضية دفاع عن النفس والكرامة والملك ! تصوري اليهود يدخلون هذه الجامعة الان ويستبيحونها وتصوري نفسك بالذات تصرخين كالمسعورة بين فكي احدهم ومخالبه .

ولم أكن بحاجة الى مزيد من الشرح بعد ان تصورت نفسي فعلا فريسة بينهم ، ودون ان انبس بكلمة اخذت بيد يوسف ، وبقوة شددته صوب القاعة الداخلية لكلية الحقوق .

يوم ثالث ...

في صوتنا بحة « محببة » هذا النهار ، لاننا البارحة القينا بانفسنا في سيل المظاهرة العرم الجارف وانطلقنا بكل قوانا ننادي بحياة ثالوث الوحدة ، والحرية ، والاشتراكية وبسقوط ثالوث الصهيونية ، والاستعمار والشيوعية ، تاركين الفلسفة واساطينها تنتظرنا في الممشى الشمالي يحرسها سيادة الزعيم الاوحد ورائد المطلق « العقل » . واليوم ونحن نتابع مضغ الخطى والحروف كنا نشعر ان اشياء جديدة تبرعم في داخلنا ، وان كلمات ذات لون جديد وطعم جديد تفرخ في حناجرنا ، فاحاديثنا اليوم في اي موضوع كان مفضوحا انها ليست اكثر من دريئة تخفي وراءها امرا يكاد يجهله كلانا .

يوم رابع ...

خلافا لعادتي افقت مبكرة هذا الصباح ، ورأيتني ارتدي ملابسي بسرعة واحمل دفتري وانزلق في مدى طريق الجامعة الطويل . كان لا بد من ان اتساءل عن ما هية هذا الشيء الجديد الذي دخل حياتي منذ حوالي الشهر وما برح يكبر ويترعرع ويتوضح . كنت اشعر انه يتحداني، وانه دخل حياتي ، رغم ارادتي ، ولذلك كثيرا ما شددت شفتي فيما بينهما وانا سائرة ، او انني اتوقف عن المشي في محاولة القاء القبض على ذيل فكرة ما تلبث ان تغيب ... اتكون هذه اعراض الحب يا ترى ؟ اعراض هذا السخف العجيب الذي يتساوى على صعيده السيد والعبد ، الغني والفقير، الجاهل والعبقري ؟ ولماذا يحب فلان فلانه ؟ الانها اجمل « من فوق التراب ولا فخر » ؟ اذن لماذا لا يحبها جميع الرجال ؟.. وبينما تتلاطم في جمجمتي وتتصارع في ملامح وجهي هذه الافكار ، فتجعلني لا ارى احدا في الطريق ، اذ بصوت يوسف ينقذني :

ـ أراك مبكرة اليوم يا آنستي ؟

ـ بل أنا الذي أراك هكذا.

ـ لا بأس .. فالمهم اننا ضبطنا بعضنا بالجرم المشهود ! ..

« يا للشيطان الذكي ، الذي يعرف كل شيء ! » قلت هذا في نفسي وتابعنا المسير صامتين نفكر في ذلك « الجرم المشهود » ..

حان موعد المحاضرة ، وبدأ زملاؤنا ينفضون من حولنا باتجاه قاعة الدرس بينما بقينا جالسين كأنما ستتمخض بعد قليل عن امر جلل تمهد له بعض حركاتنا ، وبعض ابتساماتنا . كان يوسف يغير قعدته بين الحين والحين ، ويضرب على المقعد الخشبي بجمع احدى يديه ، ثم ما لبث ان استدار نحوي تماما وهزني من كتفي هزة خفيفة وقال :

ـ عرفت طبعا اننا كنا مخطئين يوم كنا ما نزال نسفه مشكلة الحب ، وانه كان علينا ان نكون اكثر وعيا وفهما فلا نطلق احكاما على امور لم تشأ لنا ظروفنا ان ندخل تجربتها مبكرين ... أرأيت حين خرجنا لاول مرة من سردابنا يوم ذكرى تقسيم فلسطين واقتطاع اللواء والقينا بانفسنا بين المتظاهرين كيف شعرنا بنشوة اصيلة واصبحنا ننتظر اول مناسبة قومية اخرى كيما نعيش التجربة من جديد ؟

لم أرد عليه بشيء هذه المرة ، فقلبي كان ينبض بشدة ، ودموعي كادت تشي بسكوتي وربما قد احس هو بذلك الا انه تابع حديثه على نفس المستوى ، ثم ما لبث ان فاجأني :

ـ سنخطب بعضنا الليلة ... يا مريم .. سأخطبك ، وغدا سيكون اصبعك هذا محوطا بحلقة صفراء على عادة الناس . وعندما سأصلي للعذراء بعد اليوم سأفطن ابدا الى ان اسمها هو « مريم » .

يوم خامس ...

لم اذهب الى الجامعة في الحصة الاولى هذا اليوم ، وحين وصلت متأخرة وجدته ينتظرني على الباب حيث بادرني:

ـ لماذا تأخرت هذه المدة فلقد كانت المحاضرة مهمة ومفيدة .

ـ بل لماذا تنتظرني على الباب ، الانني غدوت خطيبتك ؟

ـ طبعا فلقد اصبحت اخاف عليك ...

فاتممت انا مازحة :

ـ من نسمة الجنوب .

كنا كأنما نشاهد بعضنا لاول مرة ، حتى اننا لم نستطع ان نتطلع الى وجوه بعضنا كعادتنا منذ اربع سنوات ، وحين جلسنا على احد المقاعد كانت واضحة المسافة التي تفصل بيننا ، وبحركة لا شعورية رأيته يمسك بيدي اليمنى ثم يضغطها بين يديه ، وكان يحاول ان يرفعها الى شفتيه حين مر ثلة من الطلاب امامنا ، فسحبتها بنزق واخفيتها تحت كتابي ، وغدوت ارتجف كأنما يدي كانت ستقطع او ستظل عالقة بين شفتيه .

يوم سادس ...

لم اكن قد نمت اطلاقا الليلة الماضية ، وقد قمت اكثر من مرة أشعل المصباح واتطلع الى يدي ببكاء عاني اجد فيها اثرا من يديه ، وكنت كالمجنونة اضعها فوق الوسادة وانهال عليها قبلا دونها الجحيم ، او اضمها الى صدري وانام فوقها مخافة ان تفلت مني أو يطير منها خاتم سعادتي البكر . وحين بزغت الشمس بعد عناد كاد يقتلني ، كنت اتناول طرف الشارع كالمحمومة باحثة عن نبيي الجديد ... نعم كنا ندق اخر مسمار في نعش الفلسفة والعقل ، ونطلق كل ما وراء الطبيعة من اكاذيب حين افقنا من اغماءة القبلة الاولى ، التي ما زال طعمها تحت لساني يتحدى تسع سنوات مضت ، والتي غرست في كياني الحياة وجرتني من اعصابي الى الطريق التي وجدتني فيها انهض مبكرة كل يوم لاصفف شعر ثمرة قبلتنا الاولى ، بل ثمرة المظاهرة الاولى التي غرست في دمائنا بذرة الحياة السليمة ، واضع لها كتب يومها في محفظتها الانيقة المختصرة ، واسلمها طريق المدرسة الواقعة على مسافة قريبة من بيتنا .

درعا — محمد الزعبي

الشعر العربي في المهجر الامريكي

دراسة فنية

بقلم

وديع ديب

السعر ٣٠٠ غرش لبناني